يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطيءٌ كَسْره ، سريع جَبْره . فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغنى مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذى احترف البلطجة وأكْل أموال الناس بالباطل .

ولما كانت الفتنة تقتضى صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] يعنى : مُطلَق الإنسان فى خُسْر لا ينجيه منه إلاَّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم فى الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾

واللقاء : يعنى البعث ، وقد آمنا بالله غَيْباً ، وفى الآخرة نؤمن به تعالى مَشْهداً ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] حتى مَنْ لم يؤمن فى الدنيا سيؤمن فى الآخرة .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

ويا ليته جاء فلم يجد عمله ، المصيبة أنه وجد عمله كاملاً ، ووجد الله تعالى يحاسبه ويُجازيه ، ولم يكن هذا كله على باله فى الدنيا ؛ لذلك يُفَاجأ به الآن .

وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] يعنى : لا ينتظرونه ولا يؤمنون به ؛ لذلك لم يستعدوا له ، لماذا ؟ لأنهم آثروا عافية العاجلة على عافية الآجلة ، ورأوْا أمامهم شهواتٍ ومُتَعاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة .

ما هو اللقاء ؟ اللقاء يعنى الوَصْل والمقابلة ، لكن كيف يتم الوَصْل والمقابلة بين الحق - تبارك وتعالى - وبين الخَلْق - وهذه من المسائل التى كثُر فيها الجدال ، وحدثت فيها ضجّة شككتْ المسلمين فى كثير من القضايا .

قالوا : اللقاء يقتضى أن يكون الله تعالى مُجسّماً وهذا ممنوع ، وقال آخرون : ليس بالضرورة أن يكون اللقاء وَصْلاً ، فقد يكون مجردَ الرؤية ؛ لأن رؤية العَيْن للرب ليست لقاء ، وهذا قول أهل السنة .

أما المعتزلة فقد نفَوْا حتى الرؤية ، فقال : لا يلقونه وَصْلاً ولا

رؤية ، لأن الرائى يحدد المرئى ، وهذا مُحَال على الله عز وجل .

ونقول للمعتزلة : أنتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شيء بالنسبة لله تعالى فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فإذا كان لكم ببعض لقاء يقتضى الوَصْلُ ، فلله تعالى لقاء لا يقتضى الوصل ، وإذا كانت الرؤية تحدد فلله تعالى رؤية لا تحدد . إن لك سَمْعاً ولله سمع ، أسمعُك كسمع الله عز وجل ؟ إذن : لماذا تريد أن يكون لقاء الله كلقائك يقتضى تجسُّداً ، أو رؤيته كرؤيتك ؟

لذلك فى قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال موسى ؟ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فطلب من ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، إلا أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئىّ ، إنما من جهة الرائى . لكن هل قرَّعه الله على طلبه هذا وقال عنه : استكبر وعتا عُتُواً كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قال له : ﴿ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ سبحانه : لن أُرَى ، وفرْق بين العبارتين .

فقوله : ﴿ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] المنع هنا ليس من المرئىّ بل المنع من الرائى ؛ لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] يعنى : أأنت أقوى أم الجبل؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ولاحظ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] كلمة تجلى أى : أن الله تعالى يتجلى على بعض خَلْقه ، لكن أيصبرون على هذا التجلى ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذى سخَّر اللهُ له الجبل وكلّ شيء فى الوجود .

إذن : فالإنسان هو الأكـرم ، لكن تكوينه وطبيعتـه لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاسـتـعـداد لتلقّى الأنوار الإلهـيـة ؛ ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض . أما فى الآخرة فالأمر مختلف ؛ لذلك سيُعدِّل الله هذا الخلق بحـيث تتغـير حـقائقـه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان مـوسـى ـ عليه السلام ـ قد صُعق لرؤية المـتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلِّى عز وجل ؟

لذلك ، كان من نعـمة الله تعالى على عبـاده فى الآخرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وقال عن الـكفار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين] إذن : ما يُميِّـز المؤمنين عن الكافرين أنهم لا يُحـجبون عن رؤية ربهم عـز وجل بعد أنْ تـغيَّـر تكوينهم الأخْروى ، فأصـبحـوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه فى الدنيا . وإذا كـان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصـر ما يُزيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجـد المسـرفيـن على أنفسـهم يُجادلونك بما يريحـهم ، فـتراهم يُنكرون البـعث ، ويُبـعدون هذه الفكـرة عن أنفسـهم ؛ لأنهم يعلمون سوء عاقبتهم إنْ أيقنُوا بالبعث واعترفوا به .

ومن المسْرفـين على أنفسهم حتى مؤمـنون بإله ، يقول أحدهم : ما دام أن الله تعـالى قدَّر علىَّ المـعصيـة ، فلماذا يُحـاسبنى عليـها ؟ ونعجـب لأنهم لم يذكروا المـقابل ولم يقـولوا : ما دام قد قـدَّر علينا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن : لم يقـفوا الوقفة العقلية السليمة ؛ لأن الأولى ستـجرُّ عليـهم الشر فذكـروها ، أما الأخـرى فخيـر يُساق إليهم ؛ لذلك غفلوا عن ذكْرها .

وقولهم : ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرسول بَشَراً ، وفي موضع آخر قالوا : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦)﴾ [التغابن]

إذن : كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم ، فلو جاء الرسول ملَكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة ، وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك ، ولو جاء ملَكاً لأمكنه نعم أنْ يُعلِّمنا منهج الله ، لكن لا يصح أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك ، فلو أمرك بشيء وهو ملَك لكان لك أنْ تعترض عليه تقول : أنت ملَكٌ تقدر على ذلك ، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه .

فالحق سبحانه يقول : لاحظوا أن للرسل مهمتين : مهمةَ البلاغ ، ومهمة الأُسْوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتَّى لهم البلاغ ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى .

ولو جاء الرسول ملَكاً على حقيقته ما رأيتموه ، ولاحتجتم له على صورة بشرية ، وساعتها لن تعرفوا أهو ملَك أم بشر ، إذن ، لا بُدَّ أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

وسألة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التى اقترحها الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعنى أنهم يريدون دليلَ تصديق على نبوة محمد ﷺ ، وسبق أنْ جاءهم رسول الله بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه وعجزوا أنْ يُجَاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء من عند ربهم القوى ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله : صدق عبدى فى كل ما يُبلِّغ عنى . وما دامت المعجزة قد جاءتْ بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أوْلَى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافيةً لتقوم دليلاً على صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيّات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ، لا فى القديم الذى حدث قبل أنْ يُولَد ، ولا فى الحديث الذى سيكون بعد أنْ يُولد .

إذن : فدليل صدق الرسول قائم ، فما الذى دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى ؟

وقولهم : ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] والله ، لو كان إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً ؛ لأن المرئى مُحَاطٌ بحدقة الرائى ، وما دام أحاط به فهو - إذن - محدود ، ومحدوديته تنافى ألوهيته .

وإلاَّ فالمعانى التى تختلج بها النفس الإنسانية مثل الحق والعدل الذى يتحدث عنه الناس وينشدونه ويتعصَّبون له ، ويتهافتون عليه لحلِّ مشاكلهم وتيسير حياتهم : أتدرك هذه المعانى وأمثالها بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل بالحواسّ ؟

لذلك يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] استكبر وتكبَّر : حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره ، وكلُّ إنسان منّا له قَدْر محدود .

ومن هنا جاء القول المأثور : « رَحِمَ الله امرءً عرف قدر نفسه » . فلماذا إذن يتكبّر الإنسان ؟ لو أنك إنسان سوىّ فإنك تسعد حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدى عليك ، فلماذا تغضب حينما نمنعك عن مثل هذا ؟

النظرة العقلية أن تقارن بين مَا لك ومَا عليك ، لقد منعنا يدك - وهى واحدة - أنْ تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدى الناس

أن تسرق منك ، منعنا عينك أن تمتد إلى محارم الآخرين ، ومنعنا جميع الأعْيُن أنْ تمتدّ إلى محارمك ، فلماذا إذن تفرح لهذه وتغضب من هذه ؟ كان يجب عليك أن تحكم بنفس المنطق ، فإنْ أحببتَ ما كان لك وكرهتَ ما كان لغيرك فقد جانبتَ الصواب وخالفتَ العدالة .

ومن استكبارهم مواجهتهم لرسول الله فى بداية دعوته وقولهم :
﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]
إذن : القرآن لا غبارَ عليه ، وهذا حكم واقعى منهم ؛ لأنهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن فى أرْقَى مراتب الفصاحة والبيان ، إنما الذى وقف فى حُلُوقهم أن يكون الرسول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً فى نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه .

إذن : الاستكبار أن تستكبر أن تكون تابعاً لمنْ تراه دونك ، ونحن ننكر هذا ؛ لأنك لم تَرَ محمداً ﷺ قبل أن يقوم بالرسالة أنه دونك ، بل كنت تضعه فى المكان الأعلى ، وتُسمِّيه الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلْتَه دونك ؟ إنها الهبة التى وهبه الله ، إنها الرسالة التى جعلتك تأخذ منه ما كنتَ تعطيه قبل أن يكون رسولاً .

وهل سبق لكم أنْ سمعتم عن رسول جاء معه ربه عَزَّ وجَلَّ يقول لقومه : هذا رسولى ؟ وما دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعىَ إذن للرسول ؛ لأن الله تعالى سيخاطبكم بالتكليف مباشرة وتنتهى المسألة . ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ، فأنتم تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تلكؤكم واستكباركم عن قبول الإيمان فجئتم بشىء مستحيل .

إذن : المسألة من الكفار تلكؤٌ وعناد واستكبار عن قبول الحق الواضح ، وقد سبق أن اقترحوا مثل هذه الآيات والمعجزات ، فلما

أجابهم الله كذَّبوا ، مع أن الآيات والمعجزات ليست باقتراح المرسل إليهم ، إنما تفضُّل من الله تعالى واهب هذه الرسالة .

والاستكبار مادته الكاف والباء والراء . وتأتى بمعان عدَّة : تقول كَبَرَ يكْبَر أى : فى عمره وحجمه ، وكَبُر يكبُر أى : عَظُم فى ذاته ، ومنها قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝ ﴾ [الكهف]

وتكبَّر : أظهر صفة الكبرياء للناس ، واستكبر : إذا لم يكُنْ عنده مؤهلات الكبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً .

فالمعنى ﴿ اسْتَكْبَرُوا .. ۝ ﴾ [الفرقان] ليس فى حقيقة تكوينهم إنما ﴿ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ .. ۝ ﴾ [الفرقان] فى أنهم يتبعُون الرسول ، أى : أنها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غيره أغنى منه أو أحسن منه (على زعمهم) .

ونرى مثلاً أحد الفتوات الذى يخضع له الجميع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمشَ أمامه وتواضع ؛ لأنه يستكبر بلا رصيد وبشىء ليس ذاتياً فيه .. إذن : المتكبر بلا رصيد غافل عن كبرياء ربه ، ولو استشعر كبرياء الله عَزَّ وجَل لاستحَى أنْ يتكبَّر .

لذلك نرى أهل الطاعة والمعرفة دائماً منكسرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مستشعرون كبرياءَ الله ، والإنسان (لا يتفرعن) إلا إذا رأى الجميع دونه ، وليس هناك مَنْ هو أكبر منه . فينبغى ألا يَتكبَّر الإنسان إلا بشىء ذاتى فيه لا يُسلَب منه ، فإن استكبرت بغنَاك فربما افتقرتَ ، وإن استكبرتَ بقوتك فربَّما أصابك المرض ، وإن استكبرتَ بعلمك لا تأمنْ أن يُسلبَ منك لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ومن لُطْف الله بالخَلْق ورحمته بهم أنْ يكون له وحده الكبرياء ،

وله وحده سبحانه التكبُّر والعظمة ، ويعلنها الحق تبارك وتعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[(١)] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه ، إنما يجعلها لهم رحمة ؛ لأن الخَلْق منهم الأقوياء والفُتوات والأغنياء .. حين يعلمون أن لله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم قدره (ويرعى مساوى) ، فالله هو المتكبر الوحيد ، ونحن جميعاً سواء .

لذلك يقول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) وحين يكون فى البلد كبير يخاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أنْ يعتدىَ على أحد فى وجوده ، إنما إنْ فُقِد هذا الكبير فإن القوى يأكل الضعيف . إذن : فالكبرياء من صفات الجَلال لله تعالى أنْ جعلها الله لنفع الخَلْق .

ولو تصورنا التكبر ممَّنْ يملك مؤهلاته ، كأن يكون قوياً ، أو يكون غنياً .. إلخ فلا نتصور الكِبر من الضعيف أو من الفقير ؛ لذلك جاء فى الحديث : « أبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشد ، أبغض الغنى المتكبر وبُغْضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ العاصى أشد »[(٢)].

وقوله تعالى ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان] عتوا : بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، وكأن هذا غير كافٍ فى وصفهم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ، يبغض الشيخ الزانى والفقير المختال والمكثر البخيل ، ويحب ثلاثة : رجل كان فى كتيبة فكمن حتى يحميهم حتى قتل أو فتح الله عليه ، ورجل كان فى قوم فادلجوا فنزلوا من آخر الليل .. » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان . ذكره المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٦/٣٨٧) .

فأكّد العُتُو بالمصدر (عتواً) ثم وصف المصدر أيضاً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] لماذا كل هذه المبالغة فى التعبير ؟ قالوا : لأنهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بل وعلى الله عز وجل ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة .

والعاتى الذى بلغ فى الظُّلم الحدَّ مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناس منه انتفش ، وتمادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] ومعلوم أن الكِبَر ضعف ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤)﴾ [الروم] فكيف - إذن - يصف الكبر بأنه عَاتٍ ؟ قالوا : العاتى هو القوى الجبار الذى لا يقدر أحد على صَدِّه أو رَفْع رأسه أمامه ، وكذلك الكِبَر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾

يتحدث الحق - تبارك وتعالى - عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه ﷺ ، فيقول لهم سبحانه : أنتم تشتهون أنْ تروْا الملائكة ، فسوف تروْنها لكن فى موقف آخر ، ليس موقف البُشْريات والخيرات ، إنما فى موقف الخزى والندامة والعذاب :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢)﴾ [الفرقان]

فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم ، أو ستروْنَهم يوم القيامة يوم يُبشِّرونكم بالعذاب .

يوم يستقبلون المؤمنين : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢) ﴾ [الحديد] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن هيهات ﴿ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢) ﴾ [الفرقان] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحبَّبة التى ينتظرونها ، ويقابلونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) ﴾ [الفرقان] والحجْر : المنع ، ومنه : نحجر على فلان يعني : نمنعه من التصرُّف . وقديماً كانوا يقولون فى دفع الشر : حِجْراً محجوراً يعنى : منعاً ، ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكر الجن : حابس حابس يعنى : ابتعد عنى لا تقربنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾

حين تنظر فى غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب ملَكات طيِّبة ، كالذين اجتمعوا فى حلف الفضول لنصْرة المظلوم ، وكأهل الكرم وإطعام الطعام ، ومنهم مَنْ كانت له قدْر عظيمة استظلّ رسول الله فى ظلها يوم حر قائظ ، وهذا يعنى أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء ، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين ، وحتى الطير والوحوش ، وما زِلْنا حتى الآن

نضرب المثل فى الكرم بحاتم الطائى . وكان منهم مَنْ يصل الرحم ويغيث الملهوف .. الخ .

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا ، ولم يكُنْ فى بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فعلت ليقال ، وقد قيل »(١) .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة ، لكن لم يكُنْ فى بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليُقال عنهم ؛ لذلك نراهم فى رفاهية من العيش وسَعة مُمتَّعين بألوان النعيم ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ، ونفّذوها بدقة ، والله - تبارك وتعالى - لا يحرم عبده ثمرةَ مجهوده ، وإنْ كان كافراً ، فإنْ ترك العبدُ الأسبابَ وتكاسل حرَمه الله وإنْ كان مؤمناً . وفَرْق بين عطاءات الربوبية التى تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، وبين عطاءات الألوهية .

فمن الكفار مَنْ أحسن الأَخْذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعتْ الإنسانية ، وأدوية عالجتْ كثيراً من الأمراض . ولا بُدَّ أن يكون لهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » الحديث بطوله .

جزاء على هذا الخير ، وجزاؤهم أخذوه فى الدنيا ذكْراً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم ، وصُنعت لهم التماثيل وأُعْطوا النياشين ، وأُلِّفتْ فى سيرتهم الكتب ، كأن الله تعالى لم يجحدهم عملهم ، ولم يبخسهم حقهم .

ألاَ ترى أن أبا لهب الذى وقف من رسول الله موقفَ العداء حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [المسد] ومع ذلك يُخفِّف الله عنه العذاب ؛ لأنه أعتقَ جاريته ثويبة حينما بشَّرته بميلاد محمد بن عبد الله ؛ لأنه فرح بهذه البُشْرى وأسعده هذا الخبر[1] .

ومن العجيب أن هؤلاء يقفون عند صناعات البشر التى لا تعدو أن تكون تَرَفاً فى الحياة ، فيُؤرِّخون لها ولأصحابها ، وينسون خالق الضروريات التى أعانتهم على الترقِّى فى كماليات الحياة وترفها .

وكلمة ﴿ هَبَاءً .. (٢٣) ﴾ [الفرقان] : الأشياء تتبين للإنسان ، إما لأن حجمها كبير أو لأنها قريبة ، فإنْ كانت صغيرة الحجم عزَّتْ رؤيتها ، فمثلاً يمكنك رؤية طائر أو عصفور إنْ طار أمامك أو حتى دبور أو نحلة ، لكن لو طارتْ أمامك بعوضة لا تستطيع رؤيتها .

إذن : الشىء يختفى عن النظر لأنه صغير التكوين ، لا تستطيع العين إدراكه ؛ لذلك اخترعوا المجاهر والتليسكوب .

وقد يكون الشىء بعيداً عنك فلا تراه لبُعده عن مخروطية

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٨/٣٦) : « قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى عن غير واحد من أهل العلم قالوا : كانت ثويبة مرضعة رسول الله ﷺ يصلها وهو بمكة وكانت خديجة تكرمها وهى على ملك أبى لهب وسألته أن يبيعها لها فامتنع فلما هاجر رسول الله ﷺ أعتقها أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر » .

الضـوء ؛ لأن الضوء يـبدأ من نقطة ، ثم يـتسع تدريجـيـاً على شكل مخروط ، كـما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الذى قُطْره سنتـيمتر فـيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير .

إذن : إنْ أردتَ أن ترى الصغير تُكبِّره ، وإنْ أردتَ أنْ ترى البعيد تُقرِّبه .

والهباء : هـو الذرّات التى تراها فى المخروط الضوئى حـين ينفذ إلى حجرتك ، ولا تراها بالعين المجرّدة لدقّتها ، وهذا الهباء الذى تراه فى الضوء ﴿ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : لا تستطيع أنْ تجمِّعه ؛ لأنه منتشر وغيـر ثابت ، فمهما أوقفتَ حركـة الهواء تجدْه فى الضوء يتحرك لصِغَر حجمه .

فـإنْ قلتَ : نراهم الآن يصنعـون (فـلاترَ) لحـجز هذا الـهبـاء فتُجمِّعه وتُنقِّى الهواء منه ، وهى علـى شكل مَسامّ أسفنجية يعْلَق بها الهباء ، فيمكن تجميعه .

نقول : حتى مع وجـود هذه الفلاتر ، فإنها تجـمع على قَدْر دقّة المـسامّ ، وتحـجـز على قَدْرها ، وعـلى فَرْض أنك جـمـعتَـه فى هذا الفلتر ، ثم إفرغته وقُلْت لى : هذا هـو الهباء ، نقول لك : أتستطيع أنْ ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذى طارتْ منه ؟

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾

بعـد أن وصف الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ مـا يؤول إلـيـه عـمل الكافرين أراد سبحانه أنْ يُحـدِّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن فى ذكـر المتـقابلات التى يظهـر كل منهـا الآخر ، وهذه الطريقـة فى

التعبير كثيرة في كتاب الله منها : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشيء إلى ضده لتميز بينهما ، فالمؤمن في النعيم ينظر إلى النار وحَرِّها ، فيحمد الله الذي نجاه منها ، وهذه نعمة أخرى أعظم من الأولى . والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة يتحسَّر ويعلم عاقبةَ الكفر الذي حرمه من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغَ في النكاية وأشد في العذاب ؛ لذلك قالوا : وبضدُّها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ [الفرقان] صاحب الشيء : المرافق له عن حُبٍّ ، فكأن الجنةَ تعشَقَ أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهما محبة وصُحْبة . فكما تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك . ومنه قولهم : نَبَا به المكان يعني : كَرِهه المكان .

وكلمة ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] تدل أيضاً على الملكية ؛ لأنهم لن يخرجوا منها ، وهي لن تزول ولن تنتهي .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] قلنا : إنها تُستعمل استعمالين : خير يقابله شرّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾ [البينة] .... ﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾ [البينة]

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقلّ منه ، كما لو قلت : هذا خير من هذا ، وكما في الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[1] .

وفى بعض الأساليب لا نكتفى بصيغة (خير) للتمييز بين شيئين ، فنقول بصيغة أفعل التفضيل : هذا أَخْير من هذا .

وكلمة ﴿ مُّسْتَقَرًّا .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] المستقر : المكان الذى تستقر أنت فيه ، والإنسان لا يُؤْثر الاستقرار فى مكان عن مكان آخر ، إلا إذا كان المكان الذى استقر فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره ، كما نترك الغرفة مثلاً فى الحرِّ ، ونجلس فى الحديقة أو الشُّرْفة .

ومن ذلك نقول : إذا ضاقتْ بك أرض فاتركها إلى غيرها ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَمًا[2] كَثِيرًا .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ويقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلاَدٌ بأهْلِهَا ... وَلَكِنَّ أخْلاَقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ومعنى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ [الفرقان] المقيل : هو المكان الذى كانت تقضى فيه العرب وقت القيلولة ، وهى ساعة الظهيرة حين تشتدّ حرارة الشمس ، ونسميها فى العامية (القيالة) ويقولون لمن لا يستريح فى هذه الساعة : العفاريت مقيِّلة !!

لكن أفى الجنة قيلولة وليس فيها حَرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شره . [القاموس القويم ١/٢٧٠] .

قالوا : القيلولة تعنى محلّ فراغ الإنسـان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق ـ تبارك وتـعالى ـ حينمـا ذكر أوقات الاسـتئـذان فى سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] فأمـر الصغـار أن يستـأذنوا علينا فى هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

إذن : المستـقر شىء ، والمقيل للراحـة النفسية الشخـصية شىء آخر ، لأنك قد تستقر فى مكان ومعك غيرك ، أمَّا المقيل فمكان خاصٌ بك ، إذن : لك فى الجنة مكانان : عـام وخاص ؛ لذلك قـالوا فى قول الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] قالوا : جنة عامة وجنة خاصـة ، كما يكون لك مكان لاستقبـال الضيوف ، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ﴾

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله أنْ ينزل عليهم ملائكة ، فها هى المـلائكة تنزل عليهم كـمـا يريدون ، لكن فى غيـر مسـرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم .

والسماء : هى السـقف المرفوع فوقنا المحـفوظ الذى ننظر إليه ، فلا نرى فـيه فطوراً[1] ولا شروخـاً ، ولك أن تنظر إلى السمـاء حال صـفائهـا ، وسوف تراهـا ملساء لا نتـوءَ فـيهـا ، ولا اعوجـاج على اتساعها هذا وقيامها هكذا بلا عَمَد .

---

(١) الفطور : الشـقوق والصـدوع . وتفطّر الشىء : تشـقّق . والفَطْر : الشق وجـمعـه فطور . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

لذلك يدعوك الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى النظر والتأمل ، يقول لك : لن نغشك .. انظر فى السماء وتأمل : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾ [الملك]

والسماء التى تراها فوقك على هذه القوة والتماسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ④①﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⑥⑤﴾ [الحج] إذن : هناك إذْن للسماء أن تقع على الأرض ، وأنْ تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ .. ④⑧﴾ [إبراهيم]

ويقول تعالى عن تشقُّق السماء فى الآخرة : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾ [الانشقاق]

معنى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا .. ②﴾ [الانشقاق] يعنى : استمعتْ وأطاعتْ بمجرد الاستماع .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ②⑤﴾ [الفرقان] أى : تنشقّ وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ .. ②①⓪﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ②⑤﴾ [الفرقان] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل فى موقف القيامة .

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إنْ كانت الدنيا يُملِّك الله فيها بعض خَلْقه بعض خَلْقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] وقلنا : فَرْق بين المِلْك والمُلْك : المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذى ترتديه فهو مِلك ، أمَّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى ، كما أعطاه للذى حاجَّ خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ(١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مِلْك ولا مُلْك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، والمِلْك اليوم لله وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن : فما فى يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر ، سرعان ما يُسلَب منك ؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة : لو دام المِلْك لغيرك ما وصل إليك . فالمسألة ليست ذاتيةً فيك ، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب المُلك ، وهو الملك الحق ، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينتقل ولا يزول .

وإن انتقلتْ الملكية فى الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة فى يده تعالى ، وتجمّع المِلْك والسلطة فى يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا فى الدنيا ، حيث نَذُره الاحتكار والدكتاتورية التى تجعل

---

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدَّم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١٤٣/١] .